

الفصل الثاني: حقيقة العقل وأنواعه ومجمله:

ويتضمن ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: حقيقة العقل، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : حقيقة العقل لغة.

المطلب الثاني: حقيقة العقل اصطلاحاً .

المطلب الثالث : العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي .

المبحث الثاني : أنواع العقول وتفاوتها.

المبحث الثالث: محل العقل.

المبحث الأول:

حقيقة العقل

المطلب الأول : حقيقة العقل لغة :

قال ابن فارس " العين والقاف واللام أصل واحد منقاس مطرد ، يدل عظمه على حُبْسَة في الشيء، أو ما يقارب الحبسة "(١).

وجاء في كتاب العين " العقل نقيض الجهل ، يقال عقل يعقل عَقْلاً فهو عاقل "(٢) من عَقَّلاً وعُقَّال ، والجمع عقول "(٣).

ولم يرد لفظ العقل في القرآن الكريم مصدراً البتة ، وإنما ورد في صيغة الفعل ، وذلك في نحو خمسين آية (٤) ، وللعقل معاني عدة منها :

١ - الامتناع : يقال عقل الظبي يعقل عقلاً وعُقُولاً أي امتنع ، واعتقل لسان لم يقدر على الكلام، وسمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي يمنعه ويحبسه (٥).

٢ - الإمساك : يقال : عقل الدواء بطنه يعقله ويعقله عقلاً : أمسكه ، وقيل : أمسكه بعد استطلاقه ، ويقال : أعطني عقولاً : أي يعطى ما يمسك بطنه (٦).

٣ - الفهم : يقال : عقل الشيء يعقله عقلاً : فهمه (٧).

(١) معجم مقاييس اللغة (٤ / ٦٩ - ٧٥).

(٢) كتاب العين (١/١٥٩).

(٣) انظر: القاموس المحيط (٣/٥٧٥).

(٤) انظر: الدلالة العقلية في القرآن (٢٦) العقل للنجار (٦٧).

(٥) انظر: لسان العرب (٢/٨٤٥، ٨٤٨)، القاموس المحيط (٣/٥٧٦).

(٦) انظر: لسان العرب (٢/٨٤٥).

(٧) انظر: لسان العرب (٢/٨٤٥).

٤ - الحجر والنهي : وهو ضد الحق ، والجمع عقول ، ورجل عاقل هو الجامع لأمره ورأيه ^(١) .

٥ - الملجأ : يقال العقل : الملجأ ، وفي المثل " فلان معقل لقومه " أي ملجأ ، ويقال عقل بالقوم الظل : أي لجأ وقلص عند انتصاف النهار ^(٢) .

٦ - التحصن: يقال :وعلى عاقل إذا تحصن بوزره عن الصيد ، والعقل الحصن وجمعه عقول ^(٣) .

٧ - الدية : عقل القتل يعقله عقلاً : وداه ، وعقل عنه : أدى جنايته ^(٤) .

وكل تلك المعاني وغيرها تدل على علو مكانة العقل وأهميته ؛ لأنه يجبس الإنسان ويمنعه من الحمق والطيش ، ومن التسرع في الأمور ، مع دعوته أيضاً للفهم والتأمل ، وكل ذلك يقي الإنسان من الخطأ والزلل بإذن الله ^(٥) .

(١) انظر: لسان العرب (٨٤٥/٢).

(٢) انظر: لسان العرب (٨٤٨/٢)، القاموس المحيط (٥٧٥/٣).

(٣) انظر: لسان العرب (٨٤٨/٢)، القاموس المحيط (٥٧٥/٣).

(٤) انظر: لسان العرب (٨٤٥ / ٢ - ٨٤٦) ، القاموس المحيط (٥٧٥/٣) ، وللاستزادة في المعاني اللغوية انظر: لسان

العرب (٨٤٥/٢ - ٨٤٨) ، القاموس المحيط (٥٧٥/٣ - ٥٧٧).

(٥) انظر: دراسات وتحقيقات في أصول الفقه (٤٦٤).

المطلب الثاني : حقيقة العقل اصطلاحاً :

الكلام في تعريف العقل متسع جداً، وقد نبه الجويني إلى أن الكلام عن العقل ليس بالهين^(١)، ووصف الغزالي في المستصفى من طمع بحد العقل في حد واحد أن ذلك هوس ولذا فعلى الإنسان الاقتصاد^(٢)، وقد جاء في المسودة ما نصه: "الصحيح أن العقل لا يمكن إحاطته برسم واحد"^(٣)، ولا نعجب من كلام الأئمة آنف الذكر، إذ إن الأقوال في العقل بلغت الألف قول^(٤)، وسبب اتساع الكلام في العقل مرده إلى أمرين:

الأمر الأول : أن العقل تكلم فيه أصناف الخلق ، كلٌ حسب فنّه واعتقاده واختصاصه فتكلم فيه الأطباء ، والفلاسفة^(٥)، والمتكلمون ، والفقهاء ، والأصوليون وغيرهم ، مما أدى لحصول سعة كبيرة في الإطلاقات والحدود^(٦).

الأمر الثاني : أن كلمة العقل تطلق في الاستعمال على أربعة معان ، فقد يراد بها بعض العلوم الضرورية^(٧)، وقد يراد بها الغريزة ، وقد يراد بها العلوم المستفادة من التجربة ،

(١) انظر: البرهان (١١٢/١).

(٢) انظر: المستصفى (٦٤/١).

(٣) المسودة (٥٥٨).

(٤) انظر: البحر المحيط (٨٤/١).

(٥) الفلسفة كلمة مشتقة من اليونانية، وأصلها فيلا- صوفيا، ففيلاً تعني الإيثار أو المحبة، وصوفيا أو سوفيا تعني: الحكمة، والمعنى المراد: محبة الحكمة، والفلسفة أنواع منها ما يعني بالمحاولات التي يبذلها الإنسان عن طريق العقل وطريق التصفية ليصل بها إلى معرفة الله، وهذا النوع يسميه الفلاسفة بالعلم الأعلى، وهناك أنواع أخرى تنظر في: المعجم الفلسفي (١٦٠/٢-١٧٣)، وانظر: التفكير الفلسفي في الإسلام (٢٢٣/٢-٢٤٥)، ما هي الفلسفة (١٣-٤٢).

(٦) انظر: البحر المحيط (٨٤/١).

(٧) العلم الضروري هو: ما لزم نفس المخلوق لزوماً لا يمكنه الانفكاك منه ولا الخروج عنه، فهو ضروري لأنه يوجد بالعالم دون اختياره وقصده، وقد عبر عنه بأنه ما وقع من غير نظر واستدلال كالعلم الواقع بأحد الحواس الخمس، انظر: الحدود (٢٥)، الإنصاف (١٤)، القاموس المبين (١٦٣).

كما أنها تطلق على من له وقار وهيئة ، ولذا كان من المسلم اختلاف الحدود في العقل لتوسع المصطلحات وكثرتها^(١).

ويضاف إلى ذلك أن الحديث عن العقل حديث عما يشاهد نتاجه ولا يلمس كنهه ، وما هذا وصفه يتوقع أن يكون محلاً للاختلاف في حده.

ورغم ذلك فقد سعى بعض العلماء لإقامة حد ملائم له ، وتوسع بعضهم في ذلك ومن تلك كالحود:

(١) ما عرفه بعضهم بأنه : ضرب من العلوم الضرورية ، مثل العلم بأن الضدان لا يجتمعان وأن الاثنين أكثر من الواحد ، وهذا الحد لجمهور المتكلمين^(٢) ، وهو اختيار ابن عقيل^(٣).

وقد أخرج الحد العلوم الكسبية^٤؛ لأن العاقل يتصف بكونه عاقلاً مع عدم جميع العلوم النظرية^(٥).

ومن اختار هذا الحد نبه إلى أنه لا يراد بهذا الحد العلوم ضروريها وكسبيها ؛ لأن من العقلاء من يجهل بعض العلوم الكسبية النظرية؛ ولأنه يترتب على كونه عاماً لكل العلوم أن يكون كل جاهل بالمدرجات غير عاقل لجهله بها ، وهذا غير صحيح^(٦).

(١) انظر: المسودة (٥٥٨ - ٥٥٩) ، المستصفي (٦٤/١).

(٢) انظر: المسودة (٥٥٧) ، العدة (٨٦/١) ، التحبير (٢٥٧/١) .

(٣) انظر: الواضح (٢٢/١) ، وانظر: شرح الكوكب المنير (٨١/١) ، التلخيص (١١٠/١) المختصر (٢٣) ، الموافق (١٤٦) ، التقريب و الإرشاد (١٩٥/١) أصول ابن مفلح (٣٥/١) .

^٤ (العلم الكسبي هو: العلم الحاصل عن طريق مباشرة الأسباب، فهو علم يتحصل اكتساباً ببذل الأسباب الموصلة له، انظر: التعريفات (٢٠٠)، القاموس المبين (١٦٣).

(٥) انظر: البحر المحيط (٨٦/١) ، التحبير (٢٥٧/١) ، شرح الكوكب المنير (٨٢/١).

(٦) انظر: الواضح (٢٤/١) ، التلخيص (١١٢/١) ، البحر المحيط (٨٦/١) ، التحبير (٢٧٥/١) ، الموافق (١٤٦) ، شرح الكوكب المنير (٨٢/١) ، العدة (٨٧/١) .

ولا يراد بهذا الحد العلم بالنظريات ؛ لأن هذا مشروط بكمال العقل ^(١) .

ولا يراد أيضاً علم الإنسان بوجود نفسه ، وما يعتريه من ألم وسقم ؛ لأن هذا متحقق في الأطفال والبهائم والمجانين ، وهؤلاء ليسوا بعقلاء ^(٢) .

و من اختار هذا الحد نبه إلى علة التعبير عن العقل بأنه بعض العلوم ، والعلة هي: أنه لو لم يكن كذلك لجاز انفكاك العقل عن العلم ، وهذا محال ^(٣) .

وقد رد بعض الأصوليين هذا الحد لكونه منتقضاً بخبر التواتر وما يدرك بالحواس من العلوم ، فإنهما من بعض العلوم الضرورية ، وليس بعقل ^(٤) ، كما أن هذا الحد لا يميز العقل ولا يوضحه ، والمفترض في الحدود أن تكون موضحة للمحدود ومميزة له ^(٥) .

ويمكن أن نجيب عن دعوى النقص : بأن الحد الذي ذكرناه لم يشمل خبر التواتر ، وما يدرك بالحواس ؛ لأننا ذكرنا أنه بعض العلوم لا كلها ، وكلمة " بعض " تقتضي الجزء لا الكل ، وأما كون الحد لا يميز العقل ولا يوضحه فهذا أمر طبيعي ، لكون العقل - كما أشرنا سابقاً - قد كثر فيه الكلام وتعدد وتنوع وتشعب ، وتباينت فيه الأنظار والمقاصد ، وما كان هذا شأنه فمن العسير جداً أن تدرك حدوده وتتضح وضوحاً كاملاً ، ثم إن الوضوح أمر نسبي ، فما كان واضحاً ويسيراً في التصور والإدراك لدى شخص أو طرف ، قد يكون عسيراً في الفهم والتصور لدى شخص آخر ، وهذا نتاج طبيعي لتفاوت العقول.

(٢) كما عرف العقل بأنه آلة التمييز ، وهو مروي عن الشافعي ^(١) .

(١) انظر: المواقف (١٤٦).

(٢) انظر: التقريب والإرشاد (١٩٧/١) ، الواضح (٢٤/١) ، التلخيص (١١٢/١) ، الحدود للباقي (٩٩).

(٣) انظر: المواقف (١٤٦).

(٤) انظر: الحدود (١٠ - ١٠١).

(٥) انظر: المرجع السابق .

(٣) وعرف أنه ما يحصل به الميز (٢) .

(٤) وعرف أنه : العلم، والدليل على ذلك أن أهل اللغة لا فرق عندهم بين العقل والعلم فنحن نقول علمت وعقلت ، وهذا أمر معلوم ومعقول (٣) .

لكن يقال : إن الصحيح أن العقل ليس كالعلم بل هما متغايران وبينهما فرق ، إذ العقل مخلوق في الإنسان ، وهو مركز العلوم ، وغير مستفاد ، أما العلم فهو مستفاد (٤) .

وقد يكون إطلاق العقل على العلم أو العكس من باب التسامح ، أو أن المراد بذلك المصدر وهو عقل يعقل عقلاً ، فالمراد بذلك العلم والإدراك ، وليس هذا مرادنا؛ لأن الكلام عن تلك القوة المودعة في الإنسان، ولا تنفك عنه نوماً ويقظة (٥) .

(٥) كما عرف العقل بأنه المكتسب، وهذا هو قول الفلاسفة (٦) .

وليس ذلك بصحيح ؛ لأن العاقل يتصف بكونه عاقلاً مع جهله بجميع العلوم النظرية (٧) ، كما أن هذا القول يؤدي إلى أن الصبي ، ومن عدت منه الحواس الخمس ليسوا بعقلاء ؛ لأنهم لا نظر لهم ولا استدلال يكتسبون به العقل ، كيف و الإجماع دل على حصول العقل منهم (٨) .

(١) انظر: قواطع الأدلة (٤٥) ، التحبير (٢٥٥/١) ، شرح الكوكب المنير (٨٠/١) ، تقريب الوصول (٢٢٦) هامش واحد .

(٢) انظر: التحبير (٢٥٥/١) ، شرح الكوكب المنير (٧٩/١) .

(٣) انظر: قواطع الأدلة (٤٦) .

(٤) انظر: البحر المحيط (٨٥/١) .

(٥) انظر: التحبير (٢٦٠/١ - ٢٦١) .

(٦) انظر: أصول ابن مفلح (٣٨/١) ، المسودة (٥٥٧) ، المختصر (٢٣) ، التحبير (٢٦١/١) .

(٧) انظر: البحر المحيط (٨٦/١) ، التحبير (٢٥٧/١) .

(٨) انظر: العدة (٨٥/١) .

- (٦) بعضهم عرف العقل أنه : الحياة ، وهذا ليس بصحيح ؛ لأن العقل يبطل ويـزول ولا يخرج الإنسان عن كونه حياً ، وقد يكون الحي حياً وإن لم يكن عالماً بشيء أصلاً^(١) .
- (٧) ومنهم من عرف العقل أنه : غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقه ، لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض ، ولا اطلعوا عليها من أنفسهم برؤية ولا بحس ولا بذوق ولا طعم وإنما عرفهم الله إياها بالعقل^(٢) .
- (٨) ومنهم من عرفه أنه معرفة نظمها الله ووضعها في عباده ، يزيد ويتسع بالعلم المكتسب الدال على المنافع والمضار^(٣) .
- ولكن يقال : إن المعرفة تكون عن العقل ، أي ناشئة عنه ، فكيف تكون هي العقل^(٤) .
- (٩) ومنهم من قال عن العقل إنه : صفوة الروح أي خالص الروح ، قال بذلك قوم من المتكلمين ، واحتجوا باللغة فقالوا: لب كل شيء خالصة ، فمن أجل ذلك سمي العقل لباً^(٥) .
- ورد عليهم : بأننا لا نقول ذلك ؛ لأننا لم نجد ذلك في الكتاب أو السنة^(٦) ، ثم إن الروح مغايرة للعقل وليس شيئاً واحداً^(٧) .
- (١٠) ومنهم من عرفه بأنه البصيرة وآخرون بأنه الفهم ، لكن الفهم والبصيرة وصفان يتصف بهما العقل ، ولا يمكن لنا أن نقول إنهما العقل ، وإن جوزت العرب ذلك^(٨) .

(١) انظر: المرجع السابق.

(٢) انظر: العقل للمحاسبي (٢٠١ - ٢٠٢) ، الكليات (٤٥٠).

(٣) انظر: العقل (٢٠٥).

(٤) انظر: المرجع السابق.

(٥) انظر: العقل للمحاسبي (٢٠٤).

(٦) انظر: المرجع السابق.

(٧) انظر في الروح : رسالة في العقل والروح لابن تيمية (٣٦ - ٥٣).

(١١) وبعضهم قال فيه إنه : العلم الذي يمتنع معه فعل القبيح ^(٢) ، ويمكن أن يرد عليه أن الإنسان قد يفعل القبيح ولا يخرج ذلك عن كونه عاقلاً .

(١٢) بعض الأصوليون عبر عنه بأنه : قوة ضرورية بوجودها يصح درك الأشياء ، ويتوجه تكليف الشرع ، وهو ما يعرفه كل إنسان من نفسه ، ولا يستدل عليه بغيره ؛ لأن الاستدلال مفتقر إلى علم ينظر فيه ، وأصل يعتمد عليه ، ولو كان غير العقل دليلاً عليه لكان مكتسباً ^(٣) .

(١٣) كما عبر عنه بعضهم بأنه : العلم الضروري الذي يقع ابتداءً ويعم العقلاء ، وليس منه علمنا أن الاثنين أكثر من الواحد ، لأن العاقل يعلمه من غير حدوث شيء ولا وقوعه، ولا إدراك حاسة ولا سماع خبر ، أما ما يقع بإدراك الحواس فليس من العقل ؛ لأنه كان عن طريق الحواس ^(٤) .

وفي الباب حدود أخرى ^(٥) .

(١) انظر: العقل للمحاسبي (٢٠١ ، ٢٠٨ ، ٢١٠)

(٢) انظر: المسودة (٥٥٦) ، العدة (٨٥/١) ، البحر المحيط (١ / ٨٥).

(٣) انظر: قواطع الأدلة (٤٦).

(٤) انظر: الحدود للباحي (٩٩).

^٥ حيث عرفه بعضهم بأنه القوة التي يفصل بها بين الحقائق، انظر: الواضح (٢٢/١) ، التلخيص (١٠٩/١) ، قواطع الأدلة (٤٥) ، المسودة (٥٥٦) ، البحر المحيط (٨٥/١) التقريب والإرشاد (١٩٥/١) العدة (٨٥/١) ، ومنهم من قال إنه: العلم بالمدرجات الضرورية، ومنهم من قال : هو كل العلوم الضرورية، وقيل فيه إنه جوهر بسيط، وقيل إنه مادة وطبيعة، وقيل إنه اكتساب ، وإنه عرض مخالف لسائر الأعراض والعلوم، وقيل إنه ما حسن معه التكليف، وكل هذه المعاني متقاربة، انظر: التحبير (١ / ٢٦١) ، التمهيد (٤٣/١) ، المسودة (٥٥٦) ، العدة (٨٥/١) ، ومن عرف العقل بأنه كل العلوم الضرورية نوقش حده بأنه لا يشمل الأطفال مع وجود عقل ثابت لهم، انظر: البحر المحيط (٨٧/١) ، وبأن هذا الحد يخرج الكثير من العقلاء ممن لم يعلموا كل العلوم الضرورية، ومن عرفه بأنه جوهر بسيط نوقش حده بأن الجواهر لا تتجزأ ، ولو افترضنا أن العقل جوهر ، لحصل استغناء الإنسان عن العقل ؛ لأنه جوهر بنفسه ، ولا يمكن للإنسان أن يكون عاقلاً بجوهر ذاته ونفسه، فكذا لا يكون عاقلاً بجوهر آخر هو من جنسه لعدم التجزئة، انظر: الواضح (٢٢/١) ، التلخيص (١١١/١) ، العدة (٨٧/١) ، كما أن من

التعريف المختار:

بعد عرض الحدود التي تيسر لي جمعها ، يظهر لي أن العقل مما يعسر دركه ، ويعز حده بحد جامع مانع ؛ وذلك لكثرة الكلام فيه ودقته ، إضافة لاختلاف النظرة وتباينها ، وقد يكون القول بأنه : بعض العلوم الضرورية - مع العمل بموجب تلك العلوم - إضافة إلى كونه غريزة وضعها الله في الإنسان ، هو أنسب قول فيه ، ولذا قال شيخ الإسلام " ثم من الناس من يقول : العقل هو علوم ضرورية ، ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم ، والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا ، وقد يراد بالعقل نفس الغريزة

خصائص الجواهر قيامها بذاتها ، ولا يمكن للعقل أن يقوم بنفسه ، بل هو محمول لغيره ، وهذه صفات الأعراض لا الجواهر ، فدل ذلك على بطلان كونه جوهرًا ، انظر: الواضح (٢٢/١) ، التلخيص (١١١/١) ، العدة (٨٧/١) ، قواطع الأدلة (٤٥) ، ثم إن العقل من العلوم ، والعلوم أعراض ، ولو لم نقل بذلك ، لصح أن توجد سائر العلوم مع عدم العقل ، فيكون العالم بالدقائق غير عاقل ، أو يوجد العقل مع عدم العلم ، فيكون كامل العقل غير عالم بنفسه ، ولا بالمدركات ، ولا بشيء من الضروريات وهذا محال ، بل لا يمكن للعالم أن يكون عالمًا بلا عقل ، ولا للعاقل أن يكون عاقلًا بلا علم ، فدل ذلك على كون العقل من العلوم ، وأنه من الأعراض ، انظر: الواضح (٢٣/١) ، التلخيص (١١١/١) ، العدة (٨٧/١) ، ثم إن افتراضنا أن العقل ليس من العلوم فلا يخلو الأمر : إما أن يكون العقل مثل العلوم ، أو ضدها ، أو خلافها ، أو خلافها وليس ضدها لها ، ولا يمكن للعقل أن يكون مثل العلوم لأمر ثلاثة : الأمر الأول: أنها مختلفة عنه ، ولا يمكن للشيء أن يشابه ويمثل ما هو مختلف عنه ، الأمر الثاني : أنه لو كان مثلها لاستغنى العقل بتلك العلوم عن وجوده ؛ لأن المثل يسد مسد المثل ، ولا يمكن ذلك ، الأمر الثالث : لو كان العقل مثل العلوم ؛ لوجب أن تكون سائر العلوم عقلاً ، ولا يمكن للعلوم كلها أن تكون عقلاً ؛ لوجود ما ليس بعقل منها ، فدل ذلك على أن العقل ليس مثل العلم ، ولا يكن للعقل أن يكون ضد العلوم ؛ لأن ذلك يفضي إلى استحالة اجتماع العلم والعقل ، وهذا باطل اتفاقاً ، ولا يمكن للعقل أن يكون خلاف العلوم وليس ضدها لها ؛ لأنه لو كان كذلك لجاز وجود كل منهما مع ضد صاحبه ، فيكون العقل موجوداً مع ضد العلم وهو الجهل بالضروريات والمشاهدات ، ويكون العلم بالضروريات موجوداً مع ضد العقل من الخيال والاختلال العقلي ، وهذا باطل فإذا كان كل ما مضى باطل وفاسد ، فإن ذلك يدل على أن العقل ليس جنساً مخالفاً لسائر العلوم ، انظر: الواضح (٢٣/١-٢٤) ، ومنهم من عرفه أنه : مادة تعرف بها حقائق الأشياء ، ويقال له إنه إن أراد بالمادة أنه جنسي من الأجناس والجواهر فذلك غير صحيح ؛ لأن الأحكام لا تثبت بالأجسام والجواهر ولا تكون عللاً لها ، وإن أراد بالمادة في تعريفه المذكور أنه عرض ، فإن ذلك منتف بالعلم الذي تعرف به حقائق الأشياء ؛ فإنه لا يسمى عقلاً ، إذ الحيوان يعلم كثيراً من الأشياء ، كقوته الذي يتقوت به ، وكالضرر الذي يتجنبه ، ولا يوصف بأنه عاقل ، انظر: الحدود للباحي (١٠٠).

التي في الإنسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار" إلى أن قال "وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء ، كما أن في العين قوة بها يبصر ، وفي اللسان قوة بها يذوق، وفي الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء"^(١)، والله أعلم.

(١) رسالة في العقل والروح (٣٣-٣٤).

المطلب الثالث:

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

ذكرنا أن العقل اصطلاحاً : غريزة وضعها الله في أكثر عباده ، ولا شك أن من شأن تلك الغريزة أنها تحبس الإنسان ، وتمنعه عما يشينه، فهي عاصمة له بإذن الله من الزلل والخطأ .

ثم إن العقل اصطلاحاً : علم ببعض العلوم الضرورية ككون الواحد نصف الاثنين، واستحالة اجتماع الضدين، ومن علم ذلك فإنه يعمل أيضاً استحالة اجتماع العقل مع الحمق والجنون؛ لأن هذا العقل -الذي تميز به- يحجره عن كل مثلمة تسوؤه ولا تنفعه، فنخلص إذًا أن العلاقة ما بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي هي علاقة عموم وخصوص ؛ إذ المعنى اللغوي أعم من المعنى الاصطلاحي؛ لأن المعنى اللغوي يعم كل منع وحبس ، أما المعنى الاصطلاحي فهو خاص بمنع العقل فقط، والله أعلم.

المبحث الثاني:

أنواع العقول وتفاوتها

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : أنواع العقول :

يقسم من تكلم في العقول العقل أقساماً متعددة مختلفة بناءً على تشعب الاهتمام لدى أصحاب النظر، واختلاف النظر بينهم، ولذا كان للعقل أقسام عدة أوردها على النحو الآتي :

أولاً: أقسام العقل من حيث تفاوت قوى الإدراك:

١. عقل غريزي: وهو الذي يستعد به الإنسان لقبول العلوم النظرية ، وتدبر الأمور الخفية، وعمل هذا العقل: إدراك للنظريات العلمية ، دون أن يكون هذا الإدراك عن طريق تجارب، أو عن طريق تطبيق، وهذا العقل يتعلق به التكليف^(١).

٢. عقل تجريبي : وهو العقل الذي حصله الإنسان بالتجارب ، وقد سماه الزركشي بالمكتسب وقال عنه إنه يؤدي إلى صحة الاجتهاد وقوة النظر ، ويمتنع أن يتجرد هذا العقل عن الغريزي ، وفي المقابل يمكن للغريزي أن يتجرد منه ؛ لأن هذا العقل فرع عن العقل الأول ، وقد ساق الزركشي خلافاً في العقل المكتسب هل يعد عقلاً أم لا؟ ؛ لأن المكتسب هو من نتاج العقول فكيف يكون عقلاً ، ولم يجب الزركشي عن هذا السؤال إجابة مباشرة ؛ بل اكتفى بالتنبيه إلى أن التراجع أو الخلاف في التسمية فقط^(٢).

(١) انظر: البحر المحيط (٨٨/١)، قواطع الأدلة (٤٧)، المسودة (٥٥٨ - ٥٥٩)، القاموس المبين (١٥٨).

(٢) انظر: البحر المحيط (٨٨/١) ، مقدمة ابن خلدون (٥٦٣ - ٥٦٤)، القاموس المبين (١٥٨).

ومن الأصوليون من قسم هذا النوع أقساماً أخرى ، وذلك لكونهم التفتوا التفاتة مبالغة فبدأ لهم أن هذا النوع من العقول ينقسم إلى عقل بدهي يدرك الأمور البديهية الأولية ، وعقل يدرك الغائبات الدقيقة بالوسائط المساعدة ، وما بين هذين العقلين توجد درجات في التفاوت متسلسلة ، وكان نظرهم في هذه العقول هو في تفاوتها في المدرجات من غير تطبيق^(١) .

ثانياً: أقسام العقل من حيث درجة الإدراك:

١. عقل كامل الإدراك : وهو العقل القطعي الذي يؤدي إلى اليقين الجازم ، وهو العقل الذي لا يحتمل الخطأ أو الاشتباه ، كدرك الشخص استحالة اجتماع الضدين .

٢. عقل ناقص الإدراك: وهو العقل الظني، وهو ترجيح العقل للشيء دون جزم، مع وجود احتمال للخطأ والاشتباه، كإدراكنا أن الصادق لن يكذب حتى عند الأزمات و وقوع المخرجات، وإدراكنا أن الحليم لن يغضب حتى عند وروده مواطن الغضب^(٢) .

ثالثاً: أقسام العقل من حيث المعارف المكتسبة :

١. المعارف الضرورية : وهي عبارة عما هو حاصل في الذهن ، ولا تحتاج إلى نظر وفكر، وهي العلوم البديهية ، كمثل كون الكل أعظم من الجزء .

٢. المعارف النظرية : وهي عبارة عما يحصل في الذهن بعد عملية التفكير والنظر في المقدمات، مثل معرفتنا أن الأرض كروية ، وأن العالم حادث^(٣) .

(١) انظر: قواطع الأدلة (٤٦)

(٢) انظر: العقل عند الشيعة الإمامية (٧٧).

(٣) انظر: العقل عند الشيعة الإمامية (٧٨).

رابعاً: أقسام العقل من حيث السلامة وعدمها:

١. عقل سليم خالٍ من الأمراض والأدواء الحسية والمعنوية، وهذا أسلم العقول وأعزّها .

٢. عقل مختل : وهو العقل غير السالم ، والمحتوي على علل حسية أو معنوية ، ومثل هذا العقل في خلله يتفاوت .

خامساً: أقسام العقل من حيث الديانة والانتماء:

وتنقسم العقول هنا أقساماً عدة منها: العقل الإسلامي ، اليوناني ، الغربي ، الأوروبي ، وغيرها .

وقد برز مسمى العقل الإسلامي في الحقب المتأخرة بروزاً لافتاً ، وعُني به ذلك العقل المحافظ على الدين من الموجات التغييرية، كموجة الاستشراق^(١)، والتبشير^(٢)، كما أنه برز سعيًا لحماية التراث من التحريف و الضياع، وبرز أيضاً لحماية المجتمعات من

^(١) الاستشراق: أيولوجية خاصة يراد من خلالها ترويج تصورات معينة عن الإسلام، بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق، أو مرتكزة على أوهام وافتراءات، وعبر عنها بعضهم بأنها الوسيلة لدراسة كيفية النفوذ المتبادل بين الشرق والغرب، وعرفها آخرون بأنها: إبعاد سلطان الدين عن النفوس، وهي في الحقيقة الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام، انظر: قوى الشر المتحالفة (٤٧-٩١) ، الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي (١٠-١٥) ، الاستشراق أهدافه ووسائله (١٣-٢٣) ، الإسلام في وجه التغريب (٢٢٩-٣٣٧) ، المستشرقون (١-١٠) .

^(٢) التبشير: حركة دينية سياسية استعمارية ، تهدف إلى نشر النصرانية بين الشعوب المختلفة - والشعوب الإسلامية خاصة-، تحت غطاء التبشير والدعوة إلى الخير، وقد بدأت بعد فشل الحروب الصليبية، واستخدمت لتحقيق أهدافها العديد من الطرق ، كاستغلال الفقر والمرض والجهل، واستخدام وسائل الإعلام ، واستغلال المخيمات والتعليم، ويتلقى التبشير الدعم الهائل الكبير من قبل الكنيسة ، ومن قبل الدول الغربية، انظر: التبشير في منطقة الخليج العربي (٥، ٢٢-٧١) ، ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير (١٠٠-١٠٧)، دفاع الإسلام (٣-١٤)، قوى الشر المتحالفة (٩٥-١٤٠)، الإسلام في وجه التغريب (٧-٢٥٣) الموسوعة الميسرة (٢/٦٧٥-٦٨٨).

النظريات الفكرية الغربية الخاطئة كالدأروينية^(١)، والماركسية^(٢)، والوجودية^(٣)، وغيرها، وقد يريد بعضهم بالعقل الإسلامي: المعالم الإسلامية الخاصة من عقائد وأخلاق وقيم، والتي تكفل الحاضر الجيد، والمستقبل القوي^(٤).

ومثل تلك العقول والمسميات إنما هي مسميات ثقافية بحتة، أريد بها بعث حركات تجديدية فكرية صالحة^(٥)، مثلها في ذلك مثل إطلاق ما يسمى بالعقل العربي والعقل غير العربي، ويعنى به: بيان أزمة الفكر العربية، ومحنة المثقف العربي، وهو إطلاق يحتوي على

^(١) الدأروينية: نسبة إلى صاحب مدرسة النشوء والارتقاء "داروين"، ويرى أن أصل الكائنات الحية العضوية ذات الملايين من الخلايا كائن حقير ذو خلية واحدة، ثم تدرج من الأخط إلى الأرقى حتى أصبح على هيئة قرد ثم إنسان، فالطبيعة وهبت الأنواع القوية عوامل البقاء والنمو والتكيف مع البيئة لتتصارع الكوارث و تتدرج في الترقى، ونظرية داروين مهدت الطريق لنظريات أخرى، كنظرية فرويد وسارتر وغيرهم، انظر: معجم ألفاظ العقيدة (١٧٣)، الموسوعة الميسرة (٩٣٥/٢-٩٤٢).

^(٢) الماركسية: حركة سياسية إلحادية وضع أسسها اليهودي الألماني: كارل ماركس، وساعده في التنظير: فردريك إنجلز، ولكارل ماركس أفكار إلحادية تقوم على إنكار وجود الله تعالى، وأن الإنسان جاء إلى الحياة مصادفة، وليس لوجوده غاية، والماركسية يحاربون الأديان ويرون أنها أفيون الشعوب - ويستثنون من ذلك اليهودية -، كما يحاربون الملكية الفردية، ويقولون بالشوعية في الأموال، كما أنهم قالوا بأن الأخلاق نسبية، وقالوا بعدم وجود الآخرة، راجع في الماركسية: كلمات غريبة (١٨٢-١٨٣)، الموسوعة الميسرة (٩٢٩/٢).

^(٣) الوجودية: مذهب فلسفي يقوم على أن الإنسان عليه أن يجد نفسه؛ ولأجل ذلك عليه أن يتحلل من القيم والأخلاق كي يتمتع برغباته وشهواته، فالوجود لأجل ذلك مقدم على الماهية، وقد أسس الوجودية: سورين كيركجورد، ومن أشهر من انتسب لها: جان بول سارتر الفيلسوف الفرنسي، والوجودية يعتبرون الإيمان بالله ورسله وكتبه والأمور الغيبية عوائق أمام الإنسان نحو المستقبل؛ ولذا يكفرون بها كلها، متخذين من الإلحاد مبدأ لهم، راجع في الوجودية: معجم ألفاظ العقيدة (٤٣٩)، الموسوعة الميسرة (٨٢٨/٢).

^(٤) راجع لما مضى: الفكر الإسلامي لعفيفي (٣-٢٥٦)، ابن خلدون للعالم (١٤٣-٢٣٩)، العقل للزبيدي (٣-٤)، إطار إسلامي للفكر (٥).

^(٥) انظر: من التبعية إلى الأصالة في الفكر الإسلامي (٣-٦٤)، العولمة وموقف الفكر الإسلامي منها (٨٣-٩٢).

الصواب والخطأ في آن واحد، وذلك بحسب النتائج الصادرة منه، ومدى اتساقها مع الكتاب والسنة^(١).

ومن الممكن عند النظر وجود تقسيمات أخرى للعقل إلا أن ما ذكرته أحسب أنه الأظهر والله أعلم^(٢).

^(١) انظر: أضواء على أزمة الفكر العربي المعاصر (١٧٩-٢٣٦)، إصلاح العقل في الفلسفة العربية (٣٨٩-٣٩٥)، العقل والتنوير (٢٧).

^(٢) كتقسيم العقل من حيث التوظيف العقدي إلى عقل معتزلي وعقل أشعري وعقل شيعي وعقل سني، ويراد بما سبق بيان أثر العقل ومثله لدى أصحاب الطوائف، إذا العقل ركن ثابت لدى كل طائفة، فمنهم من غلا فيه ورفع فوق قدره، ومنهم من حط مثله وما أولاه دوره المنوط به، ومنهم من توسط فيه، ويمكن تقسيم العقل تقسيماً آخر وذلك بالنظر إلى العقل عند أصحاب الفنون إذ من المعلوم أن العقل قد تكلم فيه جميع أصناف الخلق، وجميع أصحاب الفنون، وكان كل من تكلم فيه قد تحدث من واقع رؤاه الخاصة، ومن منطق بيئته المحيطة به، ولذا حصل التباين أحياناً في مخرجات العقول لدى كل فئة، ومن تحدث عن العقل أصحاب كل فن وعلم من الأطباء، والفلاسفة، والمتكلمون، والفقهاء وغيرهم، كل حسب فنه وما يليق به، فتحدث عن العقل الأطباء من حيث نظرهم له، تشريحيهم له، اعتقادهم به؛ ومن حيث أنهم يهتمون بالبدن والعقل سلطان البدن، انظر: البحر المحييط (٨٤/١)، وتحدث عنه الفلاسفة لأنهم يهتمون بالموجودات ويحرصون على الكلام عنها، والعقل موجود، ولذا تكلموا عنه، بل إن نظر الفلاسفة توسع وكثر حتى حصل منهم زلل في المعتقد وانحراف عن الجادة، إذ قسموا العقل إلى أنواع، منها: العقل النظري: وهو قوة للنفس، بما تقبل ماهيات الأمور الكلية، وله أربعة أحوال: الحال الأولى: حالة الصبي الصغير، وهذا ليس لديه شيء من المعلومات، لكن لديه استعداد للقبول، وتسمى هذه الحالة بالعقل الهولاني، أي أنه قوة للنفس مستعدة لقبول ماهيات الأشياء المجردة عن المواد، الحال الثانية: أن ينتهي الصبي إلى حد التمييز، وهذا العقل يسمى العقل بالملكة، وهو مستكمل للعقل الهولاني؛ لأنه يصير به ما كان بالقوة البعيدة قوة قريبة، والصبي في هذا العقل يجد في نفسه تصديقاً للأمور الضرورية، الحال الثالثة: تتحصل لصاحب هذه الحالة معقولات نظرية حاصلة في الذهن وهو غافل عنها، لكنه متى شاء أحضرها بفعله، ولذا تسمى هذه الحالة بـ: العقل بالفعل، الحال الرابعة: وصاحب هذه الحالة لديه استحضار للمعلومات، مطالع لها متأمل فيها، وتسمى هذه الحالة

المسألة الثانية : تفاوت العقول:

اختلف الأصوليون في ذلك على أقوال :

القول الأول : أن العقول تتفاوت من شخص لآخر ، وليست بشيء واحد.

ومن ذهب إلى هذا القول : القاضي أبو يعلى^(١) وأبو الخطاب الكلوزاني^(٢) وابن النجار الفتوح^(١)،، وحكاية الطوفي عن الحنابلة^(٢)، وهو قول الغزالي في العقل الغريزي ، والعقل

بالعقل المستفاد، ومن أنواع العقول لديهم: العقل العملي: وهو قوة للنفس، تعد مبدأ لتحريك القوة الشوقية إلى ما تختاره من جزئيات لأجل غاية مظنونة أو معلومة، وتسمى بالقوى المحركة، ولدى الفلاسفة عقل يسمى بالعقل الفعال، ويطلقونه على الملائكة، وقد قال بعضهم في حده إنه: المخرج لنفوس الآدميين في العلوم من القوة إلى الفعل، وقالوا فيه إنه: كل ماهية مجردة عن المادة أصلاً، وهذه العقول الفعالة هي أشرف الموجودات — كما ذكروا —؛ لأنها بريئة من المادة بخلاف الأجسام والتي هي أخس الموجودات، وأما النفوس فهي أوسط الموجودات؛ لأنها تنفعل من العقل، وتنفعل في الأجسام، وقد يطلقون على الملائكة " العقول العشرة " أو " المدبرة "، انظر لكل ما مضى : معيار العلم (٢٧٤ - ٢٨٢) التعريفات (١٢٢) ، الكليات (٤٥١ - ٤٥٢)، معجم المناهي اللفظية (٤٤٤)، كما أنهم قد يطلقون كلمة " العقل " مجردة عن الأوصاف أو التوابع، ويعنون بها الله عز وجل، وهذه التسمية من المنوعات؛ لأنها لم ترد في الكتاب أو السنة، انظر: معجم ألفاظ العقيدة (٢٨٤)، كما أنهم قد يطلقون على الملائكة مسمى آخر وهو: " العقول العشرة "، ويقولون عنها إنها قديمة أزلية — أي الملائكة — ، وهذا قول لم يقل مثله أحد من اليهود أو النصارى أو مشركي العرب، كما أنهم قد قالوا عن العقل إنه مبدع كل ما تحت فلك القمر، وهذا كفر، انظر: مجموع الفتاوى (١٠٤/٩ - ١٠٥)، ومن تكلم عن العقل المتكلمون ، لأنهم أهل النظر ، والعقل لديهم مقدم على النظر، وتكلم فيه الفقهاء من حيث إنه مناط التكليف، انظر: البحر المحيط (٨٤/١)، وتكلم فيه آخرون كلاماً آخر مختلف، ولا يتسع المقام لسرد كل ذلك.

(١) انظر: العدة (٩٤/١).

(٢) انظر: التمهيد (٥٢/١)، والكلوزاني هو: محفوظ بن أحمد بن حسن الكلوزاني البغدادي، أبو الخطاب ، ولد سنة ٤٣٢هـ، ثقة من أئمة الحنابلة، كان مفتياً صالحاً عابداً ورعاً حسن العشرة، مليح النادرة ، سريع الجواب، غزير العقل ، مرضي الفعال، من مؤلفاته: الهداية ، رؤوس المسائل ، التمهيد، الانتصار في المسائل الكبار، مناسك الحج،

التجريبي ، والعقل الذي تعرف به عواقب الأمور فتقمع به الشهوة ، لا العقل الضروري^(٣)، وقول الزركشي في العقل التجريبي لا الغريزي^(٤).

القول الثاني : العقول لا تتفاوت ، بل هي شيء واحد عند جميع الناس لا تزيد ولا تنقص. وهذا قول المعتزلة، و الأشاعرة، وابن عقيل من الحنابلة^(٥).

القول الثالث : ذكره المرداوي في التعبير^(٦) ، وصدره بصيغة التمريض ، وهو : أن تفاوت العقول معتمد على شكل العقل ومزاجه .

أدلة الأقوال :

أدلة القول الأول:

استدل أصحاب القول الأول بأدلة منها :

١ - الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري قال : خرج رسول الله في أضحى أو فطر إلى المصلى ، فمر على النساء فقال : (يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار ، فقلن: وبم يا رسول الله ؟ قال : تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، ما رأيت ناقصات عقل و دين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن ، قلن : وما نقصان ديننا

وغيرها ، توفي سنة ٥١٠هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٣١٩٠) ، طبقات الحنابلة (٣/٤٧٩-٤٨٠)، علماء الحنابلة (١١٦)، المنهج الأحمد (٣/٥٧-٦٧) ، الأعلام (٥/٢٩١).

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (١/ ٨٥) .

(٢) انظر: شرح مختصر الروضة (٢/١٦٠) ، والمختصر (٢٣).

(٣) انظر: إحياء العلوم الدين (١/٨٥-٨٧)

(٤) انظر: البحر الحيط (١/٨٨).

(٥) انظر: الواضح (١/ ٢٥) ، وهو قول الجويني في التلخيص (١/١١٤)، وانظر: البحر (١/٨٨).

(٦) انظر: التعبير (١/٢٦٩).

وعقلنا يا رسول الله؟، قال : أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ ، قلن : بلى ، قال : فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ ، قلن : بلى قال : فذلك من نقصان دينهن)^(١) جاء في فتح الباري^(٢) في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل الواحد " لأن الاستظهار بأخرى مؤذن بقلة ضبطها ، وهو مشعر بنقص عقلها " ، قال بعد ذلك " وأن العقل يقبل الزيادة والنقصان".

٢ - واستدلوا بحديث ابن عباس قال : قضى رسول الله بين مهاجري وأنصاري ، فقال المهاجري: يا رسول الله حقي ثابت ، وما قضى لي شيئاً ، فقال الأنصاري: صدق يا رسول الله ، إن حقه ثابت وما قضيته شيئاً ، فقال عليه السلام : فأد إليه ، فقال : أما دعواه فقد أديت إليه ، وأما حق ثواب معروفه ، فإنه علي أكافئه ، فقال المهاجري : صدق يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً ، إن الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ، لكنهما يتفاوتان في العقل ، كالذرة في جنب أحد ، وما خلق الله لخلقه حظاً هو أفضل من العقل واليقين)^(٣) ، فالحديث صريح في تفاوت العقول .

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الحيض ، باب ترك الحائض الصوم حديث (٣٠٤) ، ورواه في كتاب العيدين ، باب الخروج إلى المصلى بغير منبر (٩٥٦) ، وكتاب الزكاة ، باب الزكاة على الأقارب (١٤٦٢) ، وكتاب الصوم ، باب الحائض تترك الصوم والصلاة (١٩٥١) ، وكتاب الشهادات ، باب شهادة النساء (٢٦٥٨) ، ورواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات وبيان إطلاق لفظ الكفر على الكفر بالله ، ككفر النعمة والحقوق (٧٩).

(٢) فتح الباري (١/٤٨٤-٤٨٥).

(٣) الحديث ذكره الترمذي في نوادر الأصول من رواية ابن عباس ، وذكره السيوطي في جامع الأحاديث الحديث رقم (١٠٥٦٥) وذكر أنه مرسل من رواية الحكيم عن طاووس ، كما ذكر أنه روي مرفوعاً ، وروي أيضاً في كثر العمال في كتاب الأخلاق الفصل الثاني في تعدد الأخلاق الحمودة حديث (٧٠٥٣) ، وقد قال عنه العراقي في المغني عن حمل الأسفار إنه مرسل وإسناده ضعيف ، وأضاف أنه قد ورد نحوه من حديث أبي حميد وهو ضعيف أيضاً ، وقد قال الفتني: كل حديث فيه ذكر العقل لا يثبت ، انظر: المغني عن حمل الأسفار (٢/٩٧٩) ، تذكرة الموضوعات (٢٩) ، كثر العمال (٣/٣٨٢) ، نوادر الأصول (٢٤٢).

٣- واستدلوا بحديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله خلق العقل أصنافا شتى أكثر من عدد الرمل ، فمن الناس من أعطي حبة من ذلك ، ومنهم من أعطي حبتين ، ومنهم من أعطي مداً ، ومنهم من أعطي صاعاً ، ومنهم من أعطي فرقا ، وبعضهم وسقاً ، قال ابن سلام: منهم يا رسول الله ، قال : العمال بطاعة الله على قدر عقولهم ويقينهم وجدهم ، والنور الذي في قلوبهم^(١)).

٤- واستدلوا بحديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل ليكون من أهل الجهاد ، ومن أهل الصلاة والصيام ، ومن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وما جرى يوم القيامة أجره إلا على قدر عقله^(٢)).

٥- واستدلوا بحديث أبي سعيد (قسم الله العقل ثلاثة أجزاء ، فمن كن فيه كمل عقله ، ومن لم يكن فيه فلا عقل له ...)^(١).

^(١) الحديث ذكره البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة في كتاب الأدب (٥٢٥٢) وفي إسناده داوود بن المحرر، وقد قال ابن حجر عن أحاديث داوود إنها موضوعة لا يثبت منها شيء، وقال البوصيري: كل حديث في هذا الباب ضعيف، وروى الحديث أيضا الهيثمي في بغية الباحث في باب ما جاء في العقل في كتاب الأدب (٨٢٦)، وذكره ابن حجر في المطالب العلية في كتاب الأدب، باب العقل وفضله (٢٨٦٦)، وروى في مسند الحارث بن أسامة في كتاب الأدب باب ماجاء في العقل (٨١٣)، وذكر في تنزيه الشريعة الحديث (١١٧)، وقد قال ابن عراق عنه وعن غيره من أحاديث العقل: كلها موضوعة، انظر: تنزيه الشريعة (٢٤٩/١)، مسند الحارث بن أسامة (٣٣١/٣)، المطالب العلية (١٩٦/٨، ١٧٣)، بغية الباحث (٨٠٧/٢)، إتحاف الخيرة المهرة (٢٨/٦-٣٠)، نوادر الأصول (٢٤٢).

^(٢) ذكر الحديث البيهقي في شعب الإيمان، حديث ٤٦٣٦ في فصل في فضل العقل الذي هو من النعم العظام التي كرم بها عباده، في باب تعديد نعم الله عز وجل، وذكره ابن الأعرابي في معجمه حديث ١٧٣٢، وقد ذكر الشوكاني في الفوائد المجموعة أن الحديث في إسناده منصور بن شقير وهو ممن لا يحتج به، وقال ابن معين عن الحديث إنه باطل، وقال السيوطي عن الحديث إنه لا يصح، إذ فيه منصور وهو ممن يروي المقلوبات، ووصف العقيلي أحاديثه بالوهن، ووصف ابن الجوزي الحديث بأنه لا يصح لأجل وجود منصور بن شقير في سند الحديث، ولوجود إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة في سند آخر، قال ابن معين: إسحاق ليس بشيء، وقال أحمد: لا يحل عندي الرواية عن إسحاق، ووصفه الذهبي بأنه متروك، انظر: شعب الإيمان (١٥٥/٤)، معجم ابن الأعرابي (٢٣٩/٤)، الفوائد المجموعة (٤٧٥/١)، اللآلئ المصنوعة (١١٥/١)، الموضوعات (١٧٢/١)، تلخيص الموضوعات (١١)، تنزيه الشريعة (٢٢٩/١)، تهذيب الكمال (٣٩٤/١٨)، تاريخ بغداد (٨٠/١٣).

٦- ومن أدلتهم ما قالوه : بأننا نشاهد آثار تفاوت العقول في الآراء والأحكام والخيال ونحوها ، مما يدل على تفاوت العقول في نفسها ؛ لأن كمال الشيء ونقصه يعرف بكمال آثاره وأفعاله ^(٢) .

٧- وقد أجمع العقلاء على صحة قول القائل : فلان أعقل من فلان وأكمل عقلاً ، وهذا يدل على تفاوت العقول ^(٣) .

٨- ومن الأدلة ما تتفق عليه جميعاً من أن عقل نبينا محمد ﷺ ليس مثل عقول سائر البشر، بل هو أفضل، وهذا دال على تفاوت العقول ^(٤) .

(١) الحديث رواه الحارث في مسنده في كتاب الأدب باب ماجاء في العقل الحديث ٧٩٧، ورواه الترمذي في نوادر الأصول في الأصل السادس بعد المتين وعنوانه: في أن الاعتبار في الاجتهاد بعقد العقل، وذكره البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة في كتاب الأدب باب ماجاء في العقل الحديث (٥٢٤٦)، وذكره الهيثمي في بغية الباحث في كتاب الأدب باب ماجاء في العقل الحديث (٨١٠)، وذكره ابن حجر في المطالب العالية في كتاب الأدب باب العقل وفضله الحديث (٢٨٦١) وقال إن مدارها على داوود بن المخبر وهي موضوعة، وذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة بسند آخر قال إن فيه سليمان بن عيسى السجزي وهو كذاب صريح هالك له أحاديث غالبها في المنكرات، وذكر له سندا آخر وصفه بالغرابة، وذكر ابن الجوزي أن الحديث له ثلاثة طرق أولها فيه سليمان بن عيسى وهو كما سبق كذاب وضاع، والآخر فيه ميسرة وهو متروك أقر بوضع الحديث وفيه داوود بن المخبر وهو وضاع للحديث أيضاً، والطريق الثالث فيه مروان بن سالم قال عنه ابن الجوزي: ليس بشيء، ووصفه الإمام أحمد بعدم الثقة، وقال عنه الدارقطني والنسائي إنه متروك، وذكر ابن عراق في تنزيه الشريعة أن سليمان بن عيسى تابع منصور بن إسماعيل الحراني وقد قال عنه العقيلي إنه لا يتابع في حديثه، وفي سنده مهدي بن عامر والحسن بن حازم وهما مجهولان، وقد حكم الألباني على الحديث بالوضع كما في السلسلة الضعيفة الحديث (٥٢١٣)، انظر: مسند الحارث (٣/٣١٥)، نوادر الأصول (٢/٣٥٩)، حلية الأولياء (٣/٣٧١)، إتحاف الخيرة المهرة (٦/٢٦)، بغية الباحث (٢/٨٠٠)، المطالب العالية (٨/١٩٢)، اللآلئ المصنوعة (١/١١٧)، الموضوعات (١/١٧٢)، تنزيه الشريعة (١/١٩٤)، السلسلة الضعيفة (١١/٢١٦).

(٢) انظر: شرح مختصر الروضة (٢/ ١٦٠) ، شرح الكوكب المنير (١/ ٨٥) ، المختصر (٢٣) ، التحبير (١/ ٢٦٧).

(٣) انظر: شرح مختصر الروضة (٢/ ١٦٠) ، الكليات (٤٥١) ، شرح الكوكب المنير (١/ ٨٥) ، التمهيد (١/ ٥٥) التحبير (١/ ٢٦٧).

(٤) انظر: الكليات (٤٥١).

أدلة القول الثاني :

١ - العقل حجة عامة يرجع إليه الناس عند اختلافهم ، ولو تفاوتت العقول ، لما أمكن الرجوع إليه ؛ لأن التفاوت فيه لا يحقق مرجعيته لجميع الناس بل لبعضهم ، ولذا فالعقول غير متفاوتة^(١) .

٢ - يلزم من القول بتفاوت العقول : السفسطة^(٢) وعدم الاتفاق على رأي ، حتى في المسلمات ؛ لأنه من الممكن - إن قلنا بتفاوت العقول - أن يقول المُلْزَم في كون الواحد نصف الاثنين ، أو المُلْزَم باستحالة اجتماع الضدين : أنتم تدركون ذلك وأنا لا أدركه ، ولصح ذلك منه^(٣) .

٣ - يلزم من القول بتفاوت العقول : عدم قيام الحجة على الناس أبداً ؛ لأن كل من أُلْزِم بشيء ، أو رغب عنه ، احتج بتفاوت العقول ، فيضيع الحق حينها^(٤) .

٤ - العقل من بعض العلوم ، والعلوم لا تقبل الزيادة أو النقص ، فالعقل حينها لا يقبل الزيادة أو النقص بل هو شيء واحد^(٥) .

٥ - واحتجوا بأنه لو كان عقل أحد أكمل من عقل الآخر ، لم يحصل لغير كامل العقل غرض تأمل الأشياء ومعرفتها ؛ لأجل النقص الذي لديه^(٦) .

دليل القول الثالث : لم أجد لهذا القول أي دليل ، ويظهر لي أن من قال بهذا القول قد نظر إلى الصفات والأعراض الظاهرة ، ولم يتأمل حال الأدلة الواردة .

(١) انظر: شرح مختصر الروضة (١٦٠/٢) ، شرح الكوكب المنير (٨٦/١) ، التحبير (٢٦٨/١).

(٢) السفسطة : قياس مركب من وهميات الغرض منه تغليب الخصم وإسكاته ، التعريفات (١١٨ - ١١٩).

(٣) انظر: شرح مختصر الروضة (١٦٠/٢).

(٤) انظر: المرجع السابق.

(٥) انظر: الواضح (٢٥/١) ، العدة (١٠٠/١) ، التمهيد (٥٦/١) ، التلخيص (١١٤/١).

(٦) انظر: العدة (١٠٠/١) ، التمهيد (٥٦/١).

مناقشة الأدلة :

مناقشة أدلة القول الأول:

١ - نوقش دليلهم الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس ، بأن الأحاديث جميعها ضعيفة^(١) ، بل جاء في كتاب الموضوعات " وقد رويت في العقول أحاديث كثيرة ليس منها شيء يثبت .. وقد كان بعضهم يضع الحديث فيسرقه الآخر ويغير إسناده"^(٢) .

٢ - نوقش دليلهم الثامن بأن المراد بكمال العقل هو أن ذلك الشخص أكثر استعمالاً لعقله ، وأكثر تدبراً وتفكيراً ، وهذا لا يدل على التفاوت ، وقد يراد به أنه أكثر تجارباً ، إذا التجارب عقل ثان ، أو هو من المجاز^(٣) .

وأجيب عند ذلك من وجهين :

الوجه الأول : أن تسمية التجارب عقل ثان تسمية فاسدة ؛ لأن التجارب مغايرة للعلم^(٤) .

الوجه الثاني : أن ذلك التدبر والتفكير يدل على كثرة العقل ، إذ لو لم يكن كذلك ، لما تفكر وتدبر بشكل زائد عن الطرف الآخر^(٥) ، وليس في هذا الإطلاق مجاز .

مناقشة أدلة أصحاب القول الثاني :

ويمكن مناقشة دليلهم الأول من وجهين :

(١) انظر: الموضوعات لابن الجوزي (١٧٢/١ - ١٧٧) ، ونوادر الأصول (٢٤٢) ، وانظر هوامش الصفحات (١٧٣-١٧٥) من الرسالة حيث تم تخريج الأحاديث فيها.

(٢) الموضوعات لابن الجوزي (١٧٧/١) .

(٣) انظر: العدة (٩٩/١) ، التمهيد (٥٦/١) ، البحر المحيط (٨٨/١) ، الواضح (٢٥/١) ، التلخيص (١١٤/١)

(٤) انظر: المسودة (٥٦٠) .

(٥) انظر: التمهيد (٥٦ / ١) ، العدة (٩٩ / ١) .

الوجه الأول : في قولهم : العقل حجة عامة ، فيقال في ذلك : إن أرادوا أنه متساوٍ لدى جميع الناس فهذا موطن الخلاف ، وإن أرادوا أنه حجة عامة معتبرة بالإطلاق فهذا مسلم.

الوجه الثاني : أن في دليلهم ما يدل على قولنا : إذ قالوا : لو تفاوتت العقول لما أمكن الرجوع إلى عقول جميع الناس بل لبعضهم ، ونقول : إن هذا هو دليل التفاوت ؛ لأننا لا نرجع إلى عقول كل الناس بل إلى الأفضل منها ، مما يدل على التفاوت في العقول .

ويمكن مناقشة الدليلين الثاني والثالث بأن السفسطة وترك الحق موجودة منذ القدم سواء قلنا بتفاوت العقول أم لا ؛ لأن نزعة تحكيم الأهواء ، والانتصار للذات ، والمكابرة من الصفات البشرية التي نلاحظها جميعاً ، ثم إن في هذين الدليلين دليل لنا ؛ لأننا نلاحظ في الواقع تعدد الآراء وتكاثرها ، وعدم الاتفاق على رأي ، مع ما يلزم من ذلك من ضياع للحق أحياناً على فئات معينة ، وهذا دليل واضح على تفاوت العقول .

ونوقش دليلهم الرابع من وجهين :

الوجه الأول : في قولهم إن العقل بعض العلوم الضرورية ، و العقلاء في هذا متساوون يقال : نعم العقلاء في هذا متساوون ، ولكن من عقله كثير هو الذي يتدبر دقائق العلوم ، ويتفكر في الأشياء، فلديه عقل تميز به عن غيره ، وهذا هو التفاوت في العقول (١) .

الوجه الثاني : أن تلك العلوم التي ذكروها ، لا يختلف ما يدرك بها من النظر والشم والذوق ، ولذا لم تختلف هي في أنفسها ، بخلاف العقل ، الذي يختلف ما يدرك به وهو التمييز والتفكير، فيقل في حق بعضهم ويكثر في آخر، مما يدل على وجود التفاوت في العقول (٢) .

(١) انظر: التمهيد (١/ ٥٦) .

(٢) انظر: المسودة (٥٥٧- ٥٥٨) ، العدد (١/ ١٠٠) .

ونوقش دليلهم الخامس : أن غير كامل العقل لم يحصل له تأمل للأشياء ومعرفتها بسبب النقص الذي لديه ؛ لأننا نجد أن من لم يكمل عقله لا تكمل له أحواله ، ولا يبلغ جميع أغراضه، أما من كمل عقله بلغ أكثر أغراضه وأحواله ^(١) .

الترجيح وسببه :

بعد عرض الأقوال ومناقشتها يظهر لي أن القول الأول هو الراجح وذلك لما يأتي :

- ١ - لقوة وصراحة حديث أبي سعيد الخدري في تفاوت العقول .
 - ٢ - ولأن آثار التفاوت ظاهرة لنا مشاهدة في آراء الناس وأحكامهم .
- وقد حاول الطوفي الجمع بين القولين الأول والثاني، فذكر أن مورده ليس واحداً، وقسم العقل إلى قسمين طبيعي لا يتفاوت ، وكسبي يتفاوت ^(٢) .
- ولكن الذي يظهر لي أن الخلاف في هذه المسألة هين ، وأنه خلاف لفظي ، لعدم وجود ثمرة له، والله أعلم.

(١) انظر: العدة (١ / ١٠٠) .

(٢) انظر: شرح مختصر الروضة (٢ / ١٦٠ - ١٦١) ، شرح الكوكب المنير (١ / ٨٦ - ٨٧) .

المبحث الثالث:

محل العقل

اختلف الأصوليون وغيرهم في محل العقل على أقوال :

- القول الأول : أن العقل في الرأس - ومقره الدماغ - وهو قول أبي حنيفة ، وقول قوم من أصحابه - كما جاء في المسودة ^(١) - ، وبه قالت المعتزلة ^(٢) ، وعن الإمام أحمد روايتان ، المشهور منها أن العقل في الرأس ^(٣) .
- القول الثاني : العقل في القلب ، وهو قول مالك ، وبعض المتكلمين ^(٤) ، ونسبه ابن النجار إلى الحنابلة والشافعية والأطباء ^(٥) .
- القول الثالث : العقل في القلب ، وله اتصال بالدماغ ، بمعنى أن العقل محله القلب وشرطه الدماغ ، وهو قول أبي الحسن التميمي ^(٦) .
- القول الرابع : العقل في الدماغ إن قلنا أنه جوهر ، وإلا فهو في القلب ، ذكر هذا القول ابن النجار الفتوحى ، وصدره بصيغة التمرىض بقوله : قيل ^(٧) .

-
- (١) انظر: المسودة (٥٥٩) ، الحدود للباي (١٠١) ، وانظر: تيسير التحرير (٣٥٤/٢) ، التقرير والتحبير (٢١٦/٢) .
 - (٢) انظر: الحدود للباي (١٠١) .
 - (٣) انظر: التحبير (٢٦٤/١) ، المختصر (٢٤) ، شرح الكوكب المنير (٨٤/١) ، العدة (٨٩/١) ، التعريفات (١٥٢) ، التمهيد (٤٨/١) وغيرها .
 - (٤) انظر: الحدود (١٠١) .
 - (٥) انظر: شرح الكوكب المنير (٨٣/١) ، التمهيد (٤٨/١) ، الواضح (٢٧/١) ، التحبير (٢٦١/١) ، المسودة (٥٥٩) ، الكليات (٤٥٢) وغيرها .
 - (٦) هو عبد العزيز بن الحارث بن أسد التميمي ، أبو الحسن ، ولد سنة ٣١٧هـ ، من رؤساء الحنابلة ، له مصنفات في الأصول والفروع والفرائض توفي سنة ٣٧٣هـ ، راجع ، طبقات الحنابلة (١٣٩/٢) المنهج الأحمد (٢ / ٢٨٨) ، ميزان الاعتدال (٦٢٤/٢ - ٦٢٦) ، تنزيه الشريعة (٨٠/١) ، وراجع القول في : شرح الكوكب (٨٤/١) ، العدة (٨٩/١) وغيرها .
 - (٧) انظر: شرح الكوكب المنير (٨٤/١) التحبير (٢٦٥/١) .

- القول الخامس : العقل في جميع البدن ، ذكر هذا القول المرداوي في التحبير ^(١) .
- القول السادس : لكل حاسة من حواس الإنسان نصيب منه ، وهذا أحد قولي الأشعري ، وهو أخص من القول الخامس .
- القول السابع : لم يتعين محل للعقل ، ذكر هذا الزركشي في البحر ^(٢) ، والمرداوي في التحبير ^(٣) ونقل ذلك عن الشافعي ^(٤) .

أدلة الأقوال :

- استدل أصحاب القول الأول بجملة من الأدلة ، منها :
- الدليل الأول : أن العقلاء يضيفون العقل إلى الرأس ، ويقولون هذا ثقل الرأس ، وهذا في دماغه عقل ، وعكس ذلك يقولون : هذا فارغ الدماغ ، وهذا ليس في رأسه عقل ، ولو لم يجز ذلك لما صح قول ذلك منهم ^(٥) .
- الدليل الثاني : من المعلوم أن الدماغ إذا جف أو ضرب ذهب العقل ، مما يدل على وجود العقل في الرأس ^(٦) .
- الدليل الثالث : أجرى الطب الحديث عمليات ناجحة لزراعة القلب بشقيه : الطبيعي والصناعي ، ولم يلحظ على من أجريت عليهم العمليات أي تغير في الفكر أو الطبيعة ، بشهادة الأقربين ، مما يدل على أن القلب غير محتوٍ على العقل ، وإن كان القلب بما

(١) انظر: التحبير (٢٦٥/).

(٢) انظر: البحر المحيط (٨٨/١ - ٨٩).

(٣) انظر: التحبير (٢٦٦/١).

(٤) انظر: التحبير (٢٦٦/١) ، البحر المحيط (٨٩/ ١).

(٥) انظر: قواطع الأدلة (٤٦) ، التحبير (٢٦٥/١) ، العدة (٩٠/١) ، التمهيد (٥١/١).

(٦) انظر: قواطع الأدلة (٤٧) ، التحبير (٢٦٥/١) ، العدة (٩٠ / ١) ، التمهيد (٥٢/١).

يضخه من دم عامل بقاء للدماغ^(١)، ويضاف على ذلك أن أهل الطب ارتأوا بعد التشريح وجود العقل في الدماغ^(٢).

- الدليل الرابع: نلاحظ غالباً فيمن بهم خلل عقلي كتخلف ونحوه ، وجود ضمور أو صغر في حجم الدماغ لديهم ، مما يدل على وجود خللٍ في تلك الأدمغة أثرت على أفكارهم

(١) استفدت هذه المعلومة من الدكتور : محمد بن غرم الله الغامدي استشاري القلب بمستشفى الحرس الوطني.
(٢) ولا يمكن لهذا الأمر أن يتضح إلا بعد أن أسوق النظر الطبي في هذه المسألة ، ولذا سأذكر حقيقة الدماغ عند الأطباء، وحقيقة القلب وذلك بشكل مختصر جداً، وأبدأ بالدماغ الذي هو العضو المركزي في الجهاز العصبي ، وهو الذي يؤول أو يفسر المؤثرات التي ترسل إليه من العينين، أو الأذنين ، أو الأنف أو غيرها ، ويوجه أنواع النشاط البدني ، ويؤدي وظيفة " بنك الذاكرة "، وهو مكون من بلايين الخلايا العصبية التي تتواصل مع بعضها تواصلًا متشابكاً ، ويتكون الدماغ من نسيج رخو إسفنجي ، ذا لون رمادي ، يصل وزنه إلى ثلاثة أربال تقريباً ، ويملاً الجمجمة ، ويتصل الدماغ عند قاعدته بالنخاع الشوكي ، الذي تتصل أعصابه الجذعية بالأعصاب المنتشرة في جميع أنحاء الجسم ، وبواسطة هذه الاتصالات يتحكم الدماغ بأكثر من ستمائة عضلة إرادية بالجسم، وهو مكون من ثلاثة أقسام رئيسة هي: ١- المخ، ٢- المخيخ، جذع الدماغ، انظر: موت الدماغ بين الطب والإسلام (٤١- ٤٢)، أحكام نقل أعضاء الإنسان في الفقه الإسلامي (١٦٨ - ١٦٩)، الموسوعة الطبية الحديثة (٦/ ٨٦٨ - ٨٧٠)، انظر: اعرف دماغك (١٠٨ - ١٠٩) ، موت القلب أو موت الدماغ (١٧) ، الطب محراب الإيمان (١١٠ - ١١١)، وأما القلب فهو: عضو عضلي يقوم عليه عمل القلب، ويعمل على هيئة مضخة ، حيث تنقبض جميع الخلايا في البطينين كأنهما قطعة واحدة ، ويرتحيان في لحظة واحدة ، وكذلك الحال في الأذنين الأيمن والأيسر ، وهذا الانقباض والانبساط ذاتي لا يحتاج إلى أعصاب ، إذ تتحكم فيه خلايا خاصة موجودة في الأذنين الأيمن ، فإن فشلت هذه الخلايا حلت محلها خلايا متخصصة في العقدة الموجودة بين الأذنين والبطين ، فإن فشلت هذه حلت محلها عضلة البطين ذاتها المعروفة بـ "نظم البطين الذاتي"، ويتم ضخ الدم بشكل انقباض دوري لعضلة القلب يتلوه انبساطها وارتخاؤها، انظر: الموسوعة الطبية الحديثة (١١/ ٥٧٣)، موت القلب أو موت الدماغ (١١ - ١٧)، ويرى بعض المختصين أن المشاعر والفكر ينبعان من العقل الموجود في المخ ومراكزه العصبية ، ولا يمكن أن يكون القلب منطلقها ، وتفاعل القلب مع الغضب أو الفرح ، من خلال زيادة ضرباته ، تفاعل طبيعي ، يحدث تجاوباً مع الإشارة المرسلة من المخ ، ويدل على ذلك أن القلب ليس وحده الذي يتأثر ، بل حتى الوجه في تعرقه ، والنفس حين يصعب ، وقد يرتفع ضغط الدم ، وقد يحتقن الوجه ، فما كان القلب المتأثر الوحيد بذلك ، لكنه ربط بالمشاعر منذ القدم ، ولذا قالوا: إن العقل موجود في المخ ، وإنه المحرك لجميع العواطف والمشاعر ، وما القلب إلا جهاز يتأثر وينفعل كسائر أجهزة الجسم- ذكر ذلك الدكتور: ضياء الدين أبوشقة في كتابه: قاموس القلب الطبي (٢٩٣) ، وانظر: موت القلب أو موت الدماغ (١١)-، إلى هنا انتهى ما رأيته ملائمة للعرض بالنسبة لكنه الدماغ والقلب عند الأطباء ، والله أعلم.

ومشاعرهم ولا نشك أنه العقل ، إذ لو لم يكن هذا التخلف العقلي حاصل في الدماغ لما تأثر الدماغ ، ولما برز ذلك في حجمه ، فإذاً العقل في الدماغ .

أدلة القول الثاني :

- الدليل الأول : قوله تعالى : [$\text{لَا يَخْلُقُ أَشْيَاءَ عِندَ الْعَقْلِ} \text{ }^{(١)}$] أي لمن كان له عقل^(٢) ، فهذا دليل على أن العقل في القلب حيث عبر عنه ، والعرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان مجاوراً له^(٣) .

- الدليل الثاني : قوله تعالى : [$\text{لَا يَخْلُقُ أَشْيَاءَ عِندَ الْعَقْلِ} \text{ }^{(٤)}$] ففي صدر الآية ذكر الله سبحانه أن العقل في القلب ، وفي آخرها أكد ذلك بتحديد موقع القلب وأنه في الصدر^(٥) .

- الدليل الثالث : استدل أصحاب هذا القول بالحديث الذي رواه النعمان بن بشير : (إن الحلال بين وإن الحرام بين ، وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب^(٦)) ، جاء في فتح الباري ما نصه : " ويستدل به على أن

(١) سورة ق الآية (٣٧).

(٢) انظر: فتح القدير (٥ / ٩٨) .

(٣) انظر: قواطع الأدلة (٤٦) ، التحرير (٢٦٣/١) ، العدة (٩٠/١) التمهيد (٤٩/١).

(٤) سورة الحج الآية (٤٦).

(٥) انظر: الواضح (٢٧/١) ، التحرير (٢٦٣/١) ، الحدود (١٠١) ، العدة (٩٠/١).

(٦) الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه حديث (٥٢) ، ورواه في كتاب البيوع باب الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات (٢٠٥١) ، ورواه مسلم في كتاب المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

العقل في القلب" ^(١)، وجاء في عمدة القاري: "إن العقل إنما هو في القلب وما في الرأس منه، فإنما هو عن القلب" ^(٢).

- الدليل الرابع: واستدلوا كذلك بقول عمر عن ابن عباس: "ابن عباس فتى الكهول، له لسان قتول، وقلب عقول" ^(٣) فجعل العقل في القلب ^(٤).

- الدليل الخامس: واستدلوا بحديث كعب قال: أتيت عائشة فقلت: هل سمعت رسول الله ﷺ نعت الإنسان، فانظري هل يوافق نعتي نعت رسول الله، فقالت: انعت، قال: عيناه هاد، وأذناه قمع، ولسانه ترجمان، ويده جناحان، ورجلاه بريدان، وكبده رحمة، ورئته وطحاله ضحك، وكليته فكر، والقلب ملك، فإذا طاب طاب جنوده، وإذا فسد فسد جنوده، فقالت: سمعت رسول الله ﷺ ينعت الإنسان هكذا ^(٥).

(١) فتح الباري (١٥٦/١).

(٢) عمدة القاري (٢٩٨/١ - ٣٠٢).

(٣) الأثر رواه الحاكم في المستدرک في کتاب معرفة الصحابة في فصل ذکر عبد الله بن عباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما الحديث (٦٢٩٨)، ونقل عن الذهبي قوله بانقطاع الحديث، وذكره الطبراني في المعجم الكبير في باب العين في أحاديث عبد الله بن عباس الحديث رقم ١٠٦٢٠، وذكره البغوي في شرح السنة في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عبد الله بن عباس، وذكره عبد الرزاق في مصنفه في كتاب المناسك باب فضل أيام العشر الحديث (٨١٢٣)، وفي كتاب الجامع باب أصحاب النبي ﷺ الحديث (٢٠٤٢٨)، وذكره أبو نعيم في معرفة الصحابة باب العين الحديث (٣٧٨٩)، وذكره البيهقي في المدخل في باب مذاكرة العلم والجلوس مع أهله الحديث (٣٢٩)، وذكره عبد الله بن أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة في فضائل عبد الله بن عباس الحديث (١٥٥٥)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد في كتاب المناقب في باب جامع فيما جاء في علمه الحديث (١٥٥٢٣) وقال عنه إنه ضعيف، انظر: المستدرک (٦٢١/٣)، المعجم الكبير (٦٢٥/١٠)، شرح السنة (١٣٥/٧)، مصنف عبد الرزاق (٣٧٦/٤)، (٢٤١/١١)، معرفة الصحابة (١٣٦/١٢)، المدخل إلى السنن (٣٣١/١)، فضائل الصحابة (٨٤٤/٢)، مجمع الزوائد (٤٥٢/٩)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٩٣٥ / ٣).

(٤) انظر: الواضح (٢٧/١)، العدة (٩١/١)، التمهيد (٥٠/١).

(٥) الحديث ذكره المناوي في فيض القدير الحديث (٦١٩١)، وذكره البيهقي في شعب الإيمان في فصل في الإشارة إلى أطراف الأدلة في معرفة الله عز وجل وقال إن الحديث موقوف وذكره الترمذي في نواتر الأصول في الأصل

- الدليل السادس : واستدلوا بحديث علي في صفين " إن العقل في القلب ، والرحمة في الكبد ، والرأفة في الطحال، وإن النفس في الرئة " (١).

- الدليل السابع : القلب محل سائر العلوم ، والعقل بعض العلوم الضرورية ، فكان محل العقل القلب (٢) .

دليل القول الثالث : ولم أجد لهذا القول أي دليل نصوا عليه، ولكن من الواضح أنهم عندما قالوا: إن العقل في القلب ، فذلك بناءً على ظواهر النصوص التي وردت ودلت على أن

التاسع والأربعين بعد المئة، وقد وصفه العراقي في المغني عن حمل الأسفار بعدم الصحة، وقال عنه السيوطي في اللآلئ المصنوعة إنه موضوع؛ لأن فيه عطية وهو ضعيف، كان يدلّس في الكلبي بأبي سعيد فيظن الخدري، والحكم لا يتابع على ما ينفرد به، وفيه سويد وقد ضعفه يحيى، وفيه أيضا طلحة وهو ليس بشيء كما أن عتبة ضعيف، وذكر أن للحديث عدة طرق لا تخلو من مقال، وقال ابن الجوزي في الموضوعات إن الحديث له طريقان، ومن كلا الطريقين هو موضوع على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما الطريق الأول: ففيه عطية، وقد ضعفه الجماعة، وقال ابن حبان: كان يسمع الكلبي يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكنيه أبا سعيد، ويروي عنه ذلك، فيظن أنه الخدري، ولا تخل كتابة حديثه إلا على سبيل التعجب، وأما الحكم فقال ابن عدى لا يتابعه الثقة على ما ينفرد به، وأما سويد فكان يحيى يحمل عليه ويقول: لو قدرته لعذرته، وأما الطريق الأخرى: فقال يحيى بن معين: طلحة ليس بشيء، وعتبة ضعيف الحديث، وقال ابن حبان: لا يحتج ببقية، وقد قال الألباني عن الحديث إنه ضعيف، انظر: فيض القدير (٧٠٤/٤)، شعب الإيمان (١٣٢/١)، المغني عن حمل الأسفار (٧١٠/٢)، اللآلئ المصنوعة (٩٥/١)، الموضوعات (١٥٠/١)، نادر الأصول (١٩٢/٢)، الفوائد المجموعة (٤٦٧)، صحيح وضعيف الجامع الصغير (٨٣٤) .

(١) الأثر ذكره البخاري في الأدب المفرد في باب العقل في القلب الحديث ٥٤٧، وذكره البيهقي في شعب الإيمان في باب تعديد نعم الله عز وجل فصل في فضل العقل الحديث (٤٦٦٢)، وذكره الهندي في كثر العمال في الترهيبات فصل في الحكم الحديث (٤٤٣٩٣)، وذكره المناوي في فيض القدير الحديث (٦١٩١)، وذكره الترمذي في نادر الأصول في الأصل السادس والتسعون، وقد وصف الألباني الحديث بأنه حسن كما في صحيح الأدب المفرد، انظر: الأدب المفرد (١٩٢)، شعب الإيمان (١٦١/٤)، كثر العمال (٢٦٨/١٦)، فيض القدير (٧٠٤/٤)، نادر الأصول (١٩/٢)، صحيح الأدب المفرد (٢١٨/١)، اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعية (٩٧/١)، وفضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد (٣/٢).

(٢) انظر: قواطع الأدلة (٤٦)، التعبير (٢٦٤/١)، العدة (٩٣/١).

العقل في القلب^(١) - وقد جرى ذكرها في أدلة القول الثاني -، وأما قولهم إن له اتصالاً بالدماع ، فذلك لوجود أثر للدماغ لا ينكر^(٢) ، فكان في هذا القول جمعاً بين القولين الأولين ، وتوفيقاً بين الأدلة - كما يبدو - .

دليل القول الرابع : ولم أجد لهذا القول أي دليل ، ويمكن أن نجعل أدلة القولين الأولين مستنداً لهذا القول ، إن اعتبرناه قولاً مستقلاً ، والذي يظهر أن هذا القول راجع إلى أحد القولين الأولين في نهاية أمره ، فما كان قولاً مستقلاً .

دليل القول الخامس : لم أجد لهذا القول أي دليل ، والذي يظهر لي أن هذا القول جنح إلى اعتبار آثار الحركات في كامل الجسد دليلاً على وجود العقل في جميع تلك الأعضاء ، كما أنه عمق النظر في تفاوت الاتجاهات وتوزع الإرادات بين جميع الأعضاء ، فالعين تبصر ، والأذن تسمع ، واليد تلمس ، والقلب ينبض ، والدم يتحرك ، وهكذا في سائر الأعضاء ، فما كان لجميع الأعضاء أن تقوم استقلالاً بجزئها ، بل الدور فيها تكاملي بينها جميعاً ، وعلى هذا بنى أصحاب هذا الاتجاه رأيهم.

دليل القول السادس : ولم أجد لهذا القول مستنداً أيضاً ، ويمكن لنا جعل مستند القول السابق مستنداً له ، مع تخصيصه بالحواس المعروفة ، بخلاف القول السابق والذي عمم العقل على جميع الأعضاء .

دليل القول السابع : ولم أجد له دليلاً ، ويبدو لي أن هذا القول تجاوب طبعي مع قوة الخلاف ، وتعارض الأدلة ، وتضادها .

مناقشة الأدلة :

أولاً : مناقشة أدلة أصحاب القول الأول :

(١) انظر: دراسات وتحقيقات في أصول الفقه (٤٧٣).

(٢) ويمكن أن نستدل أيضاً بأدلة القول الأول لإبراز دور الدماغ وأهميته، وأن نجعل تلك الأدلة أدلة لهذا القول .

أ- مناقشة الدليل الأول : نوقش الدليل الأول من وجهين :

- الوجه الأول : في قولهم (هذا ثقل الرأس) ، و(هذا في دماغه عقل) هو قول صحيح؛ لأن العقل نور في القلب يفيض إلى الرأس و الحواس، وعلى هذا فالعقل في القلب لكون النور الذي ذكرناه فيه (١) .

ويمكن أن يجاب عن المناقشة التي ذكروها ، أن مناقشتهم هي في محل النزاع ، لأننا مختلفون في العقل هل هو في الرأس أو القلب؟ ، وفي مناقشتهم المذكورة نسبوه إلى القلب، وهذا موطن الخلاف .

- الوجه الثاني: في قولهم : (هذا فارغ الرأس) ، (وهذا ليس في دماغه عقل) ، فذلك لأن جفاف الدماغ يؤثر في العقل ، وإن لم يكن محله ، كما يؤثر في البصر وإن لم يكن العقل فيه (٢) .

ويمكن أن يجاب عن المناقشة المذكورة بأن الجسم لحمة واحدة يتأثر بعضه بما يعتري بعضه الآخر ، فمتى اعتري القلب خلل ما ، تأثرت الأجهزة الأخرى تبعاً له، لكن تأثر تلك الأجهزة مرهون بمدى قربها وبعدها ، وواقع صلتها بالقلب ، ويظل الألم الأعظم والأكبر هو في القلب موضع الخلل ، وكذلك الحكم بالنسبة للدماغ ، فمتى ابتلي الدماغ بعاهة ما ، فمن الطبيعي أن تتأثر الأجهزة الأخرى بسبب ذلك ، فقد يتأثر البصر ويعجز عن الرؤية ، وتكل الخطى عن المسير ، ويظل الخلل الأكبر الفعلي هو للعقل ، ولو لم يكن الدماغ موطن العقل ، لما حصل التأثير الكبير على العقل بسبب ذلك .

ب- مناقشة الدليل الثاني : ونوقش دليلهم الثاني القائل : بأن الإنسان إذا جف دماغه أو ضرب عليه زال عقله مما يدل على كون العقل فيه ، بأن هذا الزوال لا يدل على

(١) انظر: التمهيد (٥٢/١) ، التحرير (٢٦٥/١) هـ ٦ ، دراسات وتحقيقات في أصول الفقه (٤٧٣) .

(٢) انظر: التمهيد (٥٢/١) ، العدة (١ / ٩٤) ، دراسات وتحقيقات في أصول الفقه (٤٧٣) .

كون العقل فيه، لأن الإنسان قد تعصر أنثياه ويزول عقله ، ولا يوجد قائل بأن العقل هناك (١) .

ويمكن أن يجاب عن المناقشة المذكورة : بأن المقصود من هذا الدليل هو التأثير الأغلي ، فإن عصر الأنثيين لا يؤدي بالضرورة دائماً إلى زوال العقل ، وفي المقابل فإن التأثير السلبي على الدماغ يؤثر غالباً على العقل، مما يؤكد كون العقل فيه .

ثانياً: مناقشة أدلة أصحاب القول الثاني :

أ- نوقش دليلهم الأول من ثلاثة أوجه :

- الوجه الأول : أن استدلالهم بالآية لا دلالة لهم فيه على ما أرادوه ؛ لأن مقتضى الآية أن العقل السليم الخالي من الشبهة والشهوة ومن أمراض القلوب ، هو الذي ينتفع بالمواعظ و الزواجر (٢) ، ويؤيد هذا أن أصحاب الاختصاص في تأمل الآيات ، واستخلاص معانيها ومفرداته - وهم المفسرون - ، لم يجزموا بكون المراد بالقلب هنا العقل ، بل منهم من ذكر أن المراد بالقلب هو القلب نفسه ؛ لأنه إذا كان سليماً أدرك الحقائق وتفكر ما ينبغي ، ومنهم من ذكر أن المراد بالقلب : الحياة والنفس المميزّة ، وعبر عنها بالقلب ؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها (٣) ، فلم يكن مدلول الآية قاطعاً في كون العقل في القلب .

- الوجه الثاني : في قولهم إن العرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان مجاوراً له ، يمكن أن يقال : إن هذا لا يلغي كون العقل في الدماغ ؛ لأن الدماغ مجاور للقلب ، وما ابتعد عنه .

(١) انظر: المراجع السابقة .

(٢) انظر: دراسات وتحقيقات في أصول الفقه (٤٧٤).

(٣) انظر: فتح القدير (٩٨/٥).

- الوجه الثالث : أن التعبير بالقلب كان لإبراز أهميته وأثره في حياة الجسد؛ لأن في حياته حياة للجسد ، وفي موته موت له ، ولا يعني ذلك بالضرورة كون العقل فيه .

ب- نوقش دليلهم الثاني من وجهين :

- الوجه الأول : أن المراد بالقلب في صدر الآية هو القلب السليم الخالي من الأمراض ، المنتفع بالمواعظ و الزواجر ^(١) .

- الوجه الثاني : أن القلب المذكور في آخر الآية لا دلالة فيه على المسألة ، لأن الآية تدل على أن القلب خلف الصدر ، وهذا لا نزاع فيه ، وإنما النزاع في محل العقل لا القلب ^(٢) .

ج- ويمكن أن نناقش دليلهم الثالث بأنه صريح في الدلالة على أهمية القلب، وكونه قائدا للجسد ، ولكنه لا يدل على كون العقل فيه ، وقد اختلف فيه المحدثون وشرح الحديث، ففي حين جاء في فتح الباري أن الحديث يدل على كون العقل في القلب ، فقال : " ويستدل به على أن العقل في القلب ^(٣) " فقد جاء في عمدة القاري ، نقلاً عن النووي ^(٤) أن الحديث " ليس فيه دلالة على أن العقل في القلب ^(٥) " ، والذي يظهر أن الحديث لبيان منزلة القلب ، وكون القلب أمير للبدن ، بصلاحه يصلح

(١) انظر: دراسات وتحقيقات في أصول الفقه (٤٧٤) .

(٢) المرجع السابق .

(٣) فتح الباري (١٥٦/١) .

(٤) هو يحيى بن شرف النووي ، محي الدين أبو زكريا ، ولد سنة ٦٣١ هـ بنوى ، وهو فقيه شافعي حافظ عابد مجتهد ، له : المنهاج ، رياض الصالحين ، التبيين في أدب حملة القرآن ، الوسيط ، روضة الطالبين ، وغيرها ، توفي بنوى سنة ١٧٦ هـ ، انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٢١٧٤ - ٢١٧٦) : طبقات الشافعية الكبرى (٨/٣٩٥ - ٤٠٠) .

(٥) عمدة القاري (٣٠٢/١) .

الجسد ، وبفساده يفسد الجسد^(١) ، ولا يدل دلالة صريحة و واضحة على كون العقل فيه .

د- وأما الدليل الرابع فمن الممكن مناقشته من وجهين :

- الوجه الأول : أن المراد بقلب عقول أي قلب منتفع ، لكونه قلبا سليما خاليا من الشبهات والأمراض ، ومثل هذه القلوب هي التي يتحقق لها الانتفاع.

- الوجه الثاني : على فرض كون الأثر دالاً أن العقل في القلب ، فإن هذا الأثر اجتهد من عمر رضي الله عنه ، وقد اختلف الأصوليون في حجية قول الصحابة، كيف وقد حكي في الأثر ضعف^(٢)

هـ - ونوقش الدليل الخامس بأنه ضعيف^(٣).

و- وأما الدليل السادس فقد حسنه الألباني، وهو في ظاهره صريح في كون العقل في القلب، لكنه اجتهد من علي رضي الله عنه ، وقد اختلف الأصوليون في حجية قول الصحابة رضوان الله عليهم^(٤).

ز- ويمكن مناقشة دليلهم السابع بأنه استدلال في قضية متنازع فيها، إذ اختلف الأصوليون في كون العلم في القلب ، فلا يسلم لهم حينها الاستدلال .

(١) انظر: فتح الباري (١ / ١٥٦).

(٢) انظر: الصحابي وموقف العلماء من الاحتجاج برأيه (٤٥ - ١٣٧) ، إجمال الإصابة (٣١-٩٣) ، البينات السلفية (١٨ - ٩٢) ، قول الصحابي (٤٠ - ٨٦) ، حجية مذهب الصحابي (١٥ - ٧٩) ، وانظر هامش صفحة ١٨٤ من الرسالة في تخريج الحديث.

(٣) انظر التخريج في هامش صفحة (١٨٤) من الرسالة.

(٤) انظر: الصحابي وموقف العلماء من الاحتجاج برأيه (٤٥ - ١٣٧) ، إجمال الإصابة (٣١-٩٣) ، البينات السلفية (١٨ - ٩٢) ، قول الصحابي (٤٠ - ٨٦) ، حجية مذهب الصحابي (١٥ - ٧٩) ، وانظر تخريج الحديث في هامش صفحة (١٨٥) من الرسالة.

ثالثاً : بالنسبة لمستند القولين الثالث والرابع فلم يخرجنا عن إطار القولين الأولين ، وقد حصل لتلك الأدلة مناقشات وردود ، ولا حاجة لإعادتها هنا.

رابعاً : يمكن مناقشة المستند الذي سنناه لهذا القول بأن نظر آثار الجزء ، لا يغني عن نظر العموم ، وإذا كانت العين تبصر ، الأذن تسمع ، وكان لكل جهاز عمله وأثره فإن هذا لا يلغي وجود عقل في جزء معين يقود كامل الجسد بأوامره وإشاراته وهذا العقل موجود في الدماغ ، كما أكدته الحقائق العلمية الطبية .

الترجيح وسببه :

بعد عرض الأقوال وأدلتها، ومناقشة ما احتاج إلى نقاش منها، تبين لي أن القول الراجح هو القول الأول، و لو وجد من يقول بأن العقل في الدماغ وله اتصال بالقلب —وهو عكس القول الثالث- لكان القول راجحاً وذلك للآتي:

- ١- فيه جمع صريح وقوي بين النقل والعقل وتوفيق بينهما.
 - ٢- أن في جعل العقل في الدماغ مع إثبات تأثير القلب تماشٍ مع حقائق الطب الحديث التي تميل إلى جعل العقل في الدماغ، كما أن فيه اعتباراً وتقريراً لدوره.
 - ٣- أن فيه التقاء غالب الأقوال التي دار رأيها بين القلب والدماغ.
- ولكن لعدم وجود من قال بأن العقل في الدماغ وله اتصال بالقلب فإن المرجح عندي هو أن العقل في الدماغ وذلك لأمرين :
- الأمر الأول :عدم صراحة أدلة الأقوال الأخرى ، وورود المناقشة عليها ، وفي المقابل تميزت أدلة القول الأول بالقوة ، وتوجيه المناقشات الواردة .

- الأمر الثاني : توافق هذا القول مع ظواهر الحقائق العلمية الطبية ، والتي تميل إلى كون العقل في الدماغ^(١).

ثمرة الخلاف :

تظهر ثمرة الخلاف في مسألة فقهية هي : ما لو أوضح^(٢) رجل فذهب عقله ، فما الحكم فيها ؟ ، عند مالك^(٣) والشافعي^(٤) ، وورد عن الحنابلة^(٥) يلزمه دية وأرش الموضحة ؛ لأن عقله ذهب، ولم يكن الرأس محله ، فتلزم دية العقل، ولو كان الرأس محل العقل لدخل أرش الموضحة في الدية كما هو عند أبي حنيفة^(٦).

(١) وقد اطلعت على مقالة في الإنترنت قبل فترة قريبة فيها إشارة - وإشادة - بعرض تسجيلي وثائقي طبي عنوانه: القلب مستودع الذكريات، تم بثه عبر بعض القنوات الفضائية قبل ما يربو على الست سنوات، وتضمن مقابلات مع أشخاص أجريت لهم عمليات زراعة قلب فبدأوا بتذكر أمور ليست خاصة بهم، بل هي متعلقة بأشخاص القلوب الأصلية، كما أنهم ألفوا أموراً لم تكن مألوفة لهم ووجدوا في أنفسهم حبها وقد كانت مبعوضة لهم قبل، فهذا العرض الوثائقي إن كان قطعياً صرفاً ومتصفاً بالدراسة العلمية الدقيقة سيكون مؤثراً ولاشك على مجريات المسألة، وهذا التأثير لن يكون - فيما يظهر لي - مرجحاً أو مفيداً كون العقل في القلب، بل هو مؤثر ومفيد للرأي الذي أشرت إليه ولم أجد أحداً من أهل العلم أوردته وهو أن العقل في الدماغ وله اتصال بالقلب، والعلة في تقرير الرأي الأخير هو أن المفهوم من المقالة المتعلقة بشأن العرض الوثائقي أن من أجريت لهم العمليات تذكروا بعض الأمور المتعلقة بأصحاب القلوب الأصلية لا كل الأمور، وهذا يفيد أن العقل لو كان في القلب، أو كان في القلب وله اتصال بالدماغ لتذكروا الكل وغفلوا عن البعض، لا البعض دون الكل؛ لأن مقتضى ترسخ كون العقل في القلب هو الأصلية، والأصلية تستلزم الغلبة والكثرة، وهذا ما لم يحصل، وعليه فتذكر القلب للبعض أفاد التبعية لأصل آخر نفترضه قطعاً أنه الدماغ، وليس يشكل عليه - أي قول أن العقل في الدماغ وله اتصال بالقلب - إلا عدم القائلين، والله أعلم بالصواب.

(٢) الموضحة هي التي توضح العظم ، راجع الهداية (٥٢٧/٤) ، بداية المجتهد (٤ / ٤١٩) وغيرها .

(٣) انظر: بداية المجتهد (٤ / ٤١٩ - ٤٢٠) ، عقد الجواهر الثمينة (٤ / ٢٥٩ - ٢٦٦) ، المدونة لكبرى (٣٠٩/٦ - ٣١٣).

(٤) انظر: حاشية الجمل (٧١ - ٦٣/٧) ، المذهب (٥ / ٣١ - ١١٢، ١١٣ - ١٢٨، ١٣٠ - ١٣١) ، روضة الطالبين (١٤٩/٧).

(٥) انظر: المغني (١٢ / ١٥١ - ١٦٤) ، الفروع (٤٥٨/٩) ، معونة أولى النهي (٢٨٧/٨).

(٦) انظر: الهداية (٤ / ٥٣٠) ، المبسوط (٢٥ / ٦٩) ، رد المختار (٢٤٢/١٠).

وعلى الترجيح الذي رجحناه ، يلزم الموضح دية العقل فقط ؛ لأن الرأس محل العقل ،
وذهاب منفعة العقل يغني عن النظر في الآثار الجزئية المحيطة ؛ لأن الجزء يدخل في الكل ،
كما لو قطع رجل إصبع رجل فشلت يده ، يلزم القاطع دية اليد ، ويدخل جرم الإصبع
في مجموع اليد ^(١) ، والله أعلم.

(١) انظر: رد المختار (١٠ / ٢٤٥ - ٢٤٦).